جزيرة مدلله

بلاد دفنيس وكلويه [1] الجزيرة القديمة التي احتلها الجنرال كيار عقب الخلاف الذي حدث اخيرًا بين فرنسا وتركيا بسبب ارصفة الاستانة وديون لورندو وتريني وغيرها مجهولة اليوم بقدر ما كانت مشهورة في الزمن السابق وقد اردت ان اذكر عنها بعض الشيء تفكهة للقراء الكرام فاقول

هذه الجزيرة صغيرة الاَّ انها قد ابقت في بطون التاريخ ذكرًا مجيدًا ولليونان عن نسائها اقاصيص غريبة في العشق والغرام اشهرهنَّ صافو وقد نبغت في صناعة الشعر لا سيما الغرامي منهُ حتى صار اسمها عنوانًا لذوات الغنج والدلال . وهي احدى جزر الارخبيل الرومي ولا تبعد كثيرًا عن ازمير . وقد امتلكتها جمهورية البندقية في عهد الحروب الصليبية مع غيرها من الجزر وبقيت في حوزتها حتى القرن الخامس عشر حين انتزعها منها الاتراك . عدد سكانها الآن ٧٠٠٠٠ تقريبًا لكنها لقلة اهميتها لا تزور فيها السفن الاوربية بل تدور حولها وكذلك السياح فانهم يقصدون صافو وازمير ويشاهدون البلاد التي اشتهرت بحروب تروادة ولكنهم قلما يعرجون على مدلله وان دخلوها فلا يطيلون الاقامة فيها . زارها منذ عهد قريب احد الفرنساويين واسمهُ المسيو لوفي أرسلتهُ حكومتهُ بمأمورية اليها وكان قد زارها قبلهُ اثنان من علماء الالمان وشاهدا آثارها القديمة التي ابقى عليها الاتراك ولم تدمرها قنابل البنادقة

وقد اخذت الحمية احد سكان تلك الجزيرة الاصليين وهو المسيو جيورجياكس فجمع شتات تقاليدها واقاصيصها واناشيدها الوطنية التي يتناقلها الاهالي خلفًا عن سلف في كتاب نفيس ساعدهُ في وضعهِ احد علماء الفرنسيس المسيو ينوى . الا ان تلك الابحاث لم تتجاوز دائرة المعارف التي تهم المشتغلين بالعلوم اليونانية القديمة . واما جمهور القراء فيهمهُ الوقوف على احوالها الحاضرة

سكانها الحاليون قوم من اليونان يقربون كثيرًا من الشرقيين في عوائدهم واخلاقهم ولم يتغيروا عما كانوا عليهِ في السابق عند ما كان يأتيهم اليهود [2] للتاجرة في الاقمشة الحريرية ثم يقلعون الى اثينا . ومعيشتهم الآن ربما تكون اكثر بساطة عن ذي قبل وتقومهم

(١) دفنيس وكلويه اسمان لفتى وفتاة Daphnis & Chloé اشتهرا في الروايات اليونانية القديمة بحبهما العذري وكانا يسكنان تلك الجزيرة

(٢) اليهود قوم كانوا يسكنون آسيا الصغرى اشهر ملوكهم كريسوس الغني الذي اسرهُ الفرس

اشد اعتزالاً عن الدنيا وزخارفها مع حب للسلام يضمن لهم راحة الضمير التي هي سعادة المرء في هذه الحياة الدنيا . ومناظر مدله الطبيعية جميلة تروق الناظر وتقر الخاطر وحسبك منها جبل شانخ يدعوه الاهالي جبل مار الياس فاذا جاء الشتاء كساه ثوب من الثلج ناصع البياض فضلاً عن التلال الصخرية التي تشرف على البحر من كل جانب . وتتجلى الجزيرة كلها للداخل كعروس اتشحت بثوب سندسي يزيدها جمالاً وبهاء . وهناك كثير من اشجار البلوط والحور الذي يناطح برؤوسه عنان السماء والجوز الذي لا تخلو منه بقعة ومن التوت البري سياجات كثيفة وفيها غابات منفقة ارضها بشقائق النعمان بلونها الاحمر القاني . واذا اتجهت نحو الشاطىء وجدت ازهاراً من جميع الاشكال والالوان وكثيراً من شجر الزيتون وهو من اهم محصولات الجزيرة . هذا فضلاً عن المراعي الخصيبة وما فيها من القطعان . وعلى الشواطىء تكثر الاصداف الجميلة ذات اللون الارجواني

هذه هي الجزيرة التي كانت تسكنها صافو الشهيرة . وملابس نسائها كملابس نساء الشرق في الرونق والبهاء وترى الفتيات معجبات بشعورهن السوداء وهن يضفرنها ضفائر يرسلنها وراء ظهورهن وكلما زادت الضفائر طولاً زدن بها اعجاباً ودلالاً . ومن اعتقاداتهن القديمة انهن في ليلة اول مايو يضربن ظهورهن وهي عارية بنوع من القراص يزعمن انه يزيد في نماء شعورهن . وفي ذلك اليوم ايضاً من كل سنة يذهبن جماعات وسط الليل البهيم الى الحقول وهن ينشدن اناشيد الفرح والسرور فيقطفن منها الازهار بقدر ما يقدرن على حمله والتي تسمع صوت طائر الطاطوى قبل رفيقاتها تستبشر بالخير والسعادة . ثم يرجعن الى منازلهن وسكان القرية نيام وهناك يضفرن اكاليل وباقات من الزهر ويعلقنها بالكوى والابواب وهي مغلقة . وفي الصباح عند شروق الشمس يتجلى الربيع ببهجته وبهائه في المدينة كلها ناشراً اعلامه وروائحه الذكية على يد اولئك الفتيات الحسان . فاذا بزغ فجر اليوم الاول من شهر مايو نهض الاهالي من رقادهم واسرعوا في لبسهم وتخرج النساء مزينات شعورهن بشقائق النعمان علامة الابتهاج والرجال يرفلن باثخر الملابس متشحين بصدرة سوداء مزررة على شكل مستدير وفي وسطهم حزام قرمزي وعلى رؤوسهم قبعة جديدة . وفي كل قسم من اقسام المدينة تطوف في الشوارع امرأة عجوز حاملة كأساً من العسل تغمس فيه اصبعها وتمس به العذارى في جباههن ليصرن مثل العسل عذوبة في اعين خطابهن

ويتزوج الفتيات في الثانية عشرة من عمرهن اذا امتكملن جهازهن وتضطر كل فتاة ان تخيط جهازها بيديها فالحاذقة منهن هي التي تكثر من الزينة في ملابسها وتحسن تنميقها

ويتجنّ بانفسهنّ جميع قطع ثيابهنّ كالقمصان والصداري والسراويل المتنخفة والملآت والشراشف والاسمطة والاقمشة المخمة السدى او المتراخيتها الملونة وغير الملونة . كل ذلك تحيكه تلك الانامل اللطيفة

وقد تمر على الفتاة الشهور والاعوام في اتمام هذا العمل ويكون الرضى والقبول في الزواج بين الفتى والفتاة ولا يؤخذ رأي الاهل الاّ بعد اتفاقهما فاذا وافقوا على ذلك تجتمع العائلتان ويأتي الكاهن لكتابة عقد الزواج ولمبارك الزوجين ويطلب لهما سعادة الدارين . وقبل العرس بيوم تجتمع صديقات العروس في غرفتها ويتممن باعداد ما تحتاج اليه من ثياب وحلى وينشر الجهاز ثم يدخلها رفيقاتها الى الحمام ويصبغن اظافرها بالحناء . والعيد عيدها فان العرس لها وهي التي تسود اما الزوج فيأتي بعدها في الاهمية

ومن عوائد اليونان القديمة التي لم تزل مرعية في هذه الجزيرة عادة تقضي بجعل المرأة رأساً للعائلة والابنة الاولى الوارثة الوحيدة لوالديها وقد ترث في حياتهما فانهُ فضلاً عن الصداق الذي تأخذه والجهاز التي تكون قد حاكتهُ تستولي شرعاً على منزل ابيها يوم قرانها فيرحل الاب مع بقية العائلة الى منزل آخر

ومتى تمّ الاحتفال في الكنيسة يجتمع الحضور عند العروسين وتقوم فتاة على الباب وكلما حضر واحد من المدعوين تضع في فيهِ معلقة من الحلوى رمزاً للافكار اللطيفة التي يقتضي ان تمر في بالهِ عند ما يخطو عتبة الدار

افليس في كل هذه العادات البسيطة ما يصور للذهن حالة هيئة اجتماعية سعيدة لاتخامرها الاكدار والشواغل التي تنغص عيش امم اوربا وتبدل نعيمها بؤساً . فلسبوس القديمة جزيرة سعيدة وليس فيها احد على غنى واسع ولا منها فقير مدقع فان الارض مقسمة بين العائلات بنسبة متساوية وهيهات ان تجد فيها رجلاً لا يملك حقلاً او ليس في منزلهِ خبز وزيت طيب والهواء هناك معتدل تحسن فيهِ الزراعة وتسهل الاعمال وتطيب الراحة بعدها . ومنازل الجزيرة مسقفة مدهونة من الخارج بالوان مختلفة تحتوي على غرف فسيحة مفروشة بالبسط التي ينسجها النساء من صوف المعزى . وحول الجدران مقاعد يجلس عليها الضيوف فتقدم لهم القهوة التركية والحلويات والفواكه النضرة

وعاصمة الجزيرة متيلين (مدلة) وهي في بقعة تشبه الاسكندرية تماماً . وكانت مبنية في السابق على شكل درجات بعضها فوق بعض في شبه جزيرة تكاد تنفصل عن البر لا يوصل بينها وبينهُ الاّ جسور من الحجر الابيض . وعلى جانبيها مرفآن متساويان وعلى

توالي الايام امتلأ قاعها بالرمال فنتج عن ذلك برزخ ارتفعت ارضهُ بين المرفأين وامتدت اليهِ المدينة الجديدة فلم يبقَ للمدينة القديمة اثر والمدينة الجديدة صغيرة ونظيفة طرقها معوجة يخترقها كثير من الحارات والازقة . واذا نظرت اليها من بعد رأيت المنازل ذات الوان زرقاء وحمراء وصفراء تزين سفح الجبل الذي تعلوهُ القلعة وحولها غابة من شجر الزيتون تلتف كالعصابة

يأتي هذه المدينة الفلاحون من داخل الجزيرة ليبيعوا للتجار الاجانب زيت زيتونهم ونبيذ كرومهم نبيذ السبوس الشهير في الازمان الغابرة ويبيعونهم الحرير والتين والجلود والعسل والخراف والنعاج وهذه التجارة على قلتها تكفي حاجات اهل الجزيرة فانهم لا يعرفون شيئاً من اسباب الترف ولا يخزنون كنوزاً سوى عسل نحلهم الذي يجعلونهُ رمزاً للذة والسعادة

زكي حاتم

بنظارة الاشغال العمومية بمصر

طوائف الناس

أهمُّ ما يدور عليهِ علم الانسان البحث عن طوائف الناس عن اصلهم وطبائعهم وتفرُّقهم على وجهِ البسيطة

اما من حيث الاصل الذي تولدت منهُ طوائف الناس المختلفة فالمرجح عند العلماء الآن انهُ واحد غير متعدد لان ما يُرى من الفروق بين هذه الطوائف لا يكفي لجعلها انواعاً قائمة بذاتها . وزدْ على ذلك انها تستطيع كلها ان تتزاوج بعضها مع بعض وتتوالد ونسلها يتزاوج ويتوالد ايضاً وهذا لا يكون في الانواع المختلفة فهي من نوع واحد واصل واحد

وكان القائلون ان طوائف الناس ليست من اصل واحد بل من اصول مختلفة يحتجُّون على صحة قولهم بان حداثة عهد الانسان في هذه الدنيا على ما جاء في التوراة تمنع ان تكون طوائفهُ كلها من اصل واحد لان بضعة آلاف من السنين لا تكفي لما يرى من البعد الشاسع بين الزنجي والابيض وبين القوقامي والمغولي ولكن لما ثبت ان الانسان قديم يمتدُّ تاريخهُ الى الوف كثيرة من السنين ضعف مذهب تعدُّد الاصول واعتُمد مذهب الاصل الواحد

ثم اعاد بعض العلماء الكرَّة على مذهب الاصل الواحد محتجين باختلاف اللغات فانهم وجدوا ان هذا الاختلاف اصلي فيستحيل ردها كلها الى اصل واحد وهذا يدل على ان طوائف الناس مختلفة اصلاً إما انها مخلوقة في اوقات مختلفة واماكن متباينة او مرتقية من اصول